من الأدب الألماني

توبياس مندرنيكل • لتوماس مان

ترجمة : إيهاب الأزهري

شارع « جراى » واحد من تلك الطرقات التى تنحدر انحدارا كبيرا من منطقة المشاه الى وسط المدينة ، فى منتصف ذلك الشارع والى اليمين يقع المنزل رقم ٤٧ • • وهو منزل ضيق قدر المساحة ، لايختلف عما يجاوره من المنازل فى شىء •

فى الطابق الارضى من المنزل يقع حانوت لبيع الشمع •• منه تستطيع أيضا شراء (الشماشم) وذيول الخروع فاذا ماعبرت المدخل خلال ممشاه المنزل المليء بالنقط صاعدا سلما قديما تركم رائحته الانوف فانك تصل الى الطوابق العليا •

فى الطابق الاول الى اليسار يسكن صانع حراقات حمضية ، والى اليمين تقطن قابلة •

فى الطابق الثانى الى اليسار يسكن اسكافى والى يمينه تسكن سيدة ما ان تسمع وقع اقدام على السلم حتى تنطلق فى الغناء بصوت مرتفع ، الناحية اليسرى من الطابق الثالث لايقطنها أحد • • أما يمناه فيها رجل يدعى «مندرنيكل» — توبياس مندرنيكل •

تدور حول هذا الرجل قصة سأرويها الآن لانها مليئة بالمتيرات والمفرعات بدرجة غير عادية •

كان مظهر مندرنيكل الخارجى غريبا ملفتا للانظار ومثيرا للضحك عندما كان مندرنيكل يخرج للنزهة فانك ترى هيكله النحيل الهزيل يتحرك مرتكزا على عصاه وقد اكتسح بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه •

كان يرتدى قبعة عالية رثة قديمة الطراز ذات حافة مقوسة ، وسترة تلمع من قدم العهد بها • أما سرواله الرث ذو الاطراف الممزقة فانه تسير لدرجة أنك تستطيع أن ترى منه الجوارب المطاطية للعداء الطويل الذى يرتديه •

ولكن بالرغم من قدم ملابس مندرنيكل فقد كانت منطقة تنظيفها جيدا ، ومعنى بها عناية تامة •

وكانت رقبته النحيلة تبدو أكثر طولا لانها تخرج من ياقة السترة المخصصة للمتوية الى أسفل •• وكان شعره الذى أصبح رماديا منتشرا وقد ألصق على صدغيه • وكانت حافة قبعته العريضة تظلل وجها شاحبا حليقا ، عارى وجناته وقد أحاط الاحمرار بعينيه اللتين تتجه نظراتهما عادة الى الارض • ومن جانبى أنفه الدقيق تمتد تجعيدتان عميقتان شرسنان الى جانبى فمه •

لم يكن مندرنيكل يغادر منزله الا فى

القليل النادر .. وكان له عنده الوجيه في ذلك انه كان كلما ظهر في الشارع تجمعت حلقه مجموعة من الاطفال وراحوا يتبعونه وهم يضحكون ويسخرون منه صائحين .

ـ هو .. هو .. توبياس !

وتمتد أيديهم تشد أذيال سترته وهم يواصلون صياحهم وضحكهم الساخر ، بينما يظل الناس من أبوابهم صامتين ، ولم يكن توبياس مندريكل يبدي أدنى مقاومة بل كان يتلفت حوله في ارتباك وخجل وقد مرر راسه من بين كتفيه المرتعشين .. وكان يستمر في سيره هكذا كما لو كان رجلا يسرع الخطى مهرولا تحت وابل من المطر المنهمر بدون مظلة .

وبالرغم من كل هذا فلم يكن يفوته أن ينحني في ادب وتواضع لكل من يمر بهم .

ولم تكن طريقة سيره هذه لتتغير حتى عندما يتوقف الاطفال عن متابعته ويصل الى مكان بعيد عن منزله حيث لايعرفه أو حتى يكاد يلحظه أحد .

كان يواصل هرولته وخطواته السريعة محنى الهامة مطاطئ الراس كأنما تتسلط عليه آلاف من العيون الساخرة الهازئة .. فاذا ماتصادف ورفع بصره المحمول امرتسك عن الارض فانك تستطيع أن تلاحظ شيئا غريبا .. تستطيع أن تلاحظ أنه لايستطيع أن يركز نظراته على شيء أو شخص معين لفترة من الزمن قد يبدو أن ماسأقوله الآن غريبا ولكن مندريكل كان يبدو عليه أنه فقد ذلك الاحساس الطبيعي تلاهمية ، هذا الاحساس الذي يتطلع به الانسان العادي الى ماحوله من مظاهر الحياة .

كان يبدو كأنما يقيس نفسه بكل مظهر من مظاهر الحياة حوله وعندما يجد انه أقل منها يرتد نظره عنها في الحال ويتجه الى الارض منهارا أمام الرجال وامام الاشياء .

فاذا من امر هذا الرجل الذي يريد حطه من الوحدة والشقاء عن غيره من الناس العاديين .

تدل ملابسه على انه من الطبقة المتوسطة ، ولكنه كان يأتي بحركة بطيئة يده تدل على انه لم يكن من عامة الناس الذين يعيش بينهم ، كانت يده تعرف قبله في حركة ارستقراطية ، ولكن كيف لعب به القدر حتى أصبح على ماهو عليه الآن ؟

الله وحده هو الذي يعلم ، كان وجهه يبدو كما لو كانت الحياة قد صبغته في قسوة وهي تفهقه في سخرية واحتقار منه ، او قد يكون الامر متعلقا بصدمة قاسية وجهتها اليه الحياة ، لعل الله الوحيد فيما هو فيه الآن هو انه لم يكن يستطيع مواجهة الحياة ، فان التصاؤل الاليم والوضاعة الواضحة في تكوينه توحي بان الطبيعة قد حرمته ذلك القدر اللازم من القوة والاتزان والتماسك التي يحتاج اليها الانسان لكي يسير في حياته مرفوع الراس .

بعد ان يقوم توبياس بزيارته في المدينة كان يعود الى شارع حزن حيث يستقبله الاطفال بصوتهم وصياحهم المرتفع ، يدخل المنزل ويصعد السلم القذر الى غرفته العارية التي لم يكن بها ما يستحق ان يقال انه اثاث غير دولاب

انرى ذي أدراج من طراز « امبـــاير » بمقابض نحاسية ، انه قطعـــة تتمتع بقسط كبير من العبقرية الفنية والجمال والفخامة

وكان بمعرفة توبياس نافذة تطل على منظر مقبض ، فان جدار المنزل المجاور كان يقطع اى أمل فى ان ترى من خلالها الباحة التى وضع توبياس أصيص زهور على حافتها ، ولكنه حال من اى سمات الا من الطمى الذى يملؤه .

كان توبياس مندربيكل يذهب الى هذا الاصيص أحيانا ويشم الطمى .

بجانب هذه الغرفة توجد غرفة النوم وكان توبياس عندما يدخلها يلقى بقبعته وعصاه على المضجعة ثم يجلس على الاريكة المترنة ذات الكسوة الخضراء ويمتد دقنه على يده ويظل يحملق فى الارض رافعا حاجبيه فترة الوقت كانما ليس له عمل آخر غير تلك الجلسة وهذه الحملقة .

توبياس مندربيكل من الشخصيات التى يصعب الحكم عليها ، ولكن الحادثة التالية تستطيع أن تلقى بعض الضوء على شخصيته .

خرج هذا الرجل الغريب من منزله يوما فانقض عليه فى الحال جماعة من الاطفال تتبعه كالمعتـــاد بصـــيحكهم وصياحهم وسخريتهم .. وفى تلك الاثناء تعثر أحدهم ــ وهو صبى فى العاشرة من عمره ــ فى قدم صبى آخر وسقط على الارض بشدة وارتطم وجهه بحافة الطوار حتى أن الدم تفجر من انفه وجبهته وأغرق وجهه ، فارتمى الصبى فى مكانه وأخذ يبكى .

وهنا توقف توبياس فى الحال ، ثم استدار متجها الى الصبى قبدأ يواسيه فى صوت هادىء يختلج بالعاطفة .

ــ ايها الطفل المسكين .. هل جرحت نفسك ؟ انك تنزف ، انظر كيف يسيل الدم على وجهك من الجرح فى جبهتـــك نعم .. نعم .. انك تبدو بائسا حقا .. انك تبكى لان الجرح يؤلمك الما شديدا ، انى أرثى لك .. انك مسئول عما حدث لك طبعا فقد فعلته أنت لنفسك ولـكن سأربط منديلا حول راسك ... هانذا قد فعلت ، هيا ، هيا .. والآن تماسك وانهض من وقعتك هذه ، هيا ، هيا .. هيا ياصغيرى العزيز .

فى أثناء حديث توبياس مع الصبى كان قد فتح حراحه .. وربط منديله حـــول الجرح ، وســـاعد الصبى فى النهوض على قدميه ثم ذهب . ولـكنه بدا كما لو كان انسانا آخر فقد انتعشت قامته وقويت خطواته فى اعتـــداد ، واتسع صدره وهو يسحب من الهواء حوله انفاسا عميقة .. وبدت عيناه أكثر اتساعا وأكثر لمعانا .

وانبعد طريقه مواجها الناس والاشياء فى ثقة واعتداد ، بينما تعبير عميق من السرور والسعادة قد تملكه وظهر جليا على وجهه فقد كانت الابتسامة العميقة على جانبى فمه تبدو كانها تزلله من شدة انفعالها وعمقها .

وبعد هذه الحادثة ــ ولبعض الوقت ــ قلل سكان شارع جراى من سخريتهم منه ، ولكنهم بمرور الوقت ، نســـوا تصرفه هذا المثير .. وعادت سخرة أخرى

صيحاتهم القاسية تتردد من الحناجر القوية لعشرات الاطفال تتبع الرجل المحنى الضعيف ... هو .. هو .. توبياس

***

في الحادية عشر من صباح يوم مشرق الشمس غادر توبياس مندريكل مسكنه متجها طريقه عبر المدينة حتى وصل الى متنزه ليرشليرج ، حيث يقضى أهالى المدينة وأفراد مجتمعها الراقى عصر كل يوم فى النزهة والسير على الاقدام . فى ذلك اليوم كان الجو صحوا جميلا حدا لدرجة انه قبل حلول الظهر كنت ترى بعض العربات وبعض المشاه يستمتعون بهذا الجو بالتنزه فى الحدائق

عند الشارع الرئيسى تحت احدى الصخور وقف رجل يمسك بطرف رباط تنتهى الناحية الاخرى منه بكلب صغير من كلاب الصيد .. انه يعرضه للبيع كان الكلب صغير الحجم ، تبدو عليه القوة والعضلات ، فى حوالى الشهر الرابع من عمره أسود الاذنين ، تحيط بعينيه دائرتان سوداوان .

على بعد عشر خطوات لاحظ توبياس مندريكل ما يحدث ، فوقف دون حراك يفكر وقد أخذ يمرر يده على ذقنه .. وراح يبطر الى الرجل ويراقب الكلب الذى أخذ يحرك ذيله فى نشاط .

تقدم توبياس بضع خطوات ثم دار حول الشجرة عدة مرات وهو يضغط بطرف عصاه على شفتيه .. وأخيرا تقدم من الرجل ونظراته مركزة على الكلب وتحدث فى صوت حاد وبسرعة كم تطلب ثمنا للكلب ؟

فاجاب الرجل ـ عشر ماركات

وهنا التزم توبياس الصمت بعض الوقت ثم قال فى تردد ـ عشر ماركات ؟!

فاجاب الرجل ـ نعم

اخرج توبياس من جيبه حافظة جلدية سوداء اللون ، وأخرج منها ورقة من فئة الخمس ماركات واخرى فئة المـاركات الثلاث وثالثة فئة الماركتين ، وأعطاها للرجل بسرعة ثم امسك برباط الكلب .. وضحك بصحبة اشخاص ممن كانوا يرقبون الصفقة وهم يرونه وهو يبطر حوله نظرة سريعة خاطفة ثم يجذب الحيوان الذى يسوى مجتمعا وابتعد عن المكان وقد انحنى كتفاه .

وظل الكلب يقاوم طيلة الطريق وهو يمد قدميه الاماميتين ويدفع بهما الارض ناظرا الى وجه سيده الجديد بطريقة يستدر بها عطفه . ولكن توبياس استمر يجذبه ـ دون أن يتكلم ـ يجذبه بقوة حتى نجح فى أن يعبر به المدينة .

وعندما ظهر توبياس فى شارع جراى وهو يجر الكلب قامت مظاهرة من صبيان الشارع الاشقياء ، فرفع توبياس الكلب بين ذراعيه بينما راح الصبية يرقصون حوله ، وهم يشدون بترانه ويصيحون ساخرين منه .

وصعد توبياس السلم حاملا الكلب حتى وصل الى غرفته الخاصة ، فوضعه على الارض وهو لايزال يحنى . انحنى توبياس على الكلب وأخذ يربت عليه فى رقة وعطف وهو يجذبه بقوله

ـ كفى ، كفى ، أيها الرجل الصغير .. لا حاجة بك الى أن تخاف منى ..

لا داعي مطلقا الى الخوف مني .

وأخرج صحنا من اللحم المطبوخ والبطاطس من أحد الادراج ، والقى بمعظمه الى الكلب .. عندئذ توقف الكلب عن الاحتجاج وأقبل على الطعام يأكله بشهية مسموعة ، وهو يهز ذيله .

قال توبياس ـ سوف أدعوك «أوسو» هل تفهمني ؟ من السهل عليك أن تتذكر هذا الاسم .

ثم انحنى توبياس الى الارض أمامه وقال في نبرة آمرة ـ أوسو ! تحرك أيها الكلب ـ لعله كان مدفوعا بالامل في الحصول على مزيد من الطعام .. تحرك مقتربا من توبياس الذي مال على الكلب ووضع يده على ظهره في حنو وقال

ـ احسنت أيها الكلب الجميل .. نعم ، هكذا .. أيها الكلب الجميل .

وتراجع توبياس خطوات الى الخلف ثم انحنى مرة أخرى الى الارض أمامه وقال آمرا ـ أوسو !

وقفز الكلب نحوه في سرعة ونشاط ، وهو يهز ذيله ، وبدا يلعق حذاء سيده

واعاد توبياس يكرر تلك الحركة في حماس لاكثر من عشرة ، او اربع عشرة مرة ، حتى تعب الكلب وتلمس الراحة لكي يهضم الطعام الذي تناوله .. فاستلقى على الارض ، واقعى هناك متمددا بتلك الطريقة الجميلة التي يتمدد بها كلاب الصيد ، ماذا ساقيه الاماميتين الطويلتين القويتين أمام جسمه، الواحدة بالقرب من الاخرى .. وقال توبياس

ـ مرة أخرى .. هيا يا أوسو .

ولكن أوسو أدار رأسه جانبا ، وظل قابعا حيث هو .

ـ أوسو

ارتفع صوت توبياس ووضحت في نبراته تلك الدكتاتورية التي كان يأمر بها الكلب .

ـ يجب أن تأتي الى هنا .. حتى ولو كنت متعبا !

ولكن أوسو اسند رأسه على مخلبيه ولم يات على الاطلاق .

ـ استمع الي .

قال توبياس وقد اصبح صوته الآن مخصصا مليئا بالتهديد والوعيد .

ـ الافضل لك أن تطيعني والا عرفت ما أفعل عندما أغضب .

ولكن الكلب لم يحرك حتى ولا ذيله .

عندئذ تملكت مدرب الكلب حالة مجنونة مسالم فيها من الغضب ، فامسك بعصاه السوداء ، ورفع أوسو بيده من أعلى رقبته .. وحمى حمى من الغضب هوى بعصاه ضربا على الحيوان الذي يهوى .. وهو يكرر في صوت مخيف كالفحيح

ـ ماذا الك لا تطيعني ؟ أتجرؤ على عدم اطاعتي ؟

وأخيرا القى بالعصا بعيدا ووضع الحيوان الذي يهوى على الارض .. ثم بدأ يذرع الغرفة حيثة ودهايا وقد تشابكت يداه وراء ظهره وصدره يعلو ويهبط ، وهو يلقي ـ بين الحين والآخر ـ نظرة متعالية مليئة بالغضب على الكلب .

وبعد أن مرت فترة على هذه الحالة ٠٠ توقف توبياس أمام الكلب الذي كان راقدا على ظهره محركا ساقيه الاماميتين في استعطاف ٠

وضع توبياس صندريكل يديه على صدره متقاطعتين ، وتحدث في حماس عندما كان يقف أمام فرقة من جيشه لم يمتثل بلاء حسنا في احدى المعارك ٠

ـ هل استطيع أن اسألك عن رايك في تصرفاتك هذه ؟

وما كاد الكلب يحس بهذا التساؤل من سيده ويسمعه أنه يوجه اليه الحديث حتى رحف مقتربا منه والتصق بقدم صاحبه راقما رأسه اليه وعيناه تلمعان.

وظل توبياس برهة يحدق في المخلوق المسكين باحتقار صامت ٠ ثم عندما أحس بحرارة جسمه الملاصق لقدمه ٠٠ مال وحمل أوسو بين ذراعيه ـ وقال له

ـ حسنا ، سوف اشفق عليك

ولكن عندما بدا الحيوان الطيب يلعق وجه سيده ، ارتجف صوت توبياس بمشاعر حزينة وضم الكلب في حنو وشوق الى صدره ، وامتلأت عيناه بالدموع ، ولم يستطع أن يكمل حديثه٠ وأخيرا قال في صوت متهدج ـ

ـ أرجو أن تفهمني ٠٠ انك الوحيد الذي ٠٠ ليس لدي الا ٠ انك بالنسبة لي الوحيد الذي ٠٠

وحمل توبياس الكلب الى الاريكة فأرقده عليها بعناية شديدة حتى نام الكلب ٠٠ وجلس توبياس بجواره ، وقد اعتمد ذقنه بيده وأخذ ينظر اليه نظرات تنطق بالحنو ٠ دون أن ينطق ٠

* * *

اصبح توبياس صندريكل يغادر غرفته الآن اقل من ذي قبل ٠٠ فلم يكن لديه اي رغبة في أن يراه أحد في صحبة اوسو ٠

ووهب كل وقته للكلب، منذ الصباح حتى المساء ٠٠ يطعمه ويتلطف له عيشه ويعلمه اطاعة الاوامر ، ويوبخه، ويحدثه كما لو كان انسانا ٠

ولكن اوسو للاسف لم يكن يتصرف دائما بالطريقة التي ترضي سيده ٠٠ وكان عندما يرقد بجوار توبياس على الاريكة تبدو عليه مظاهر الخمول والكسل بسبب حاجته الى التريض والهواء الطلق ٠٠ ويحملق في سيده بعيون كلها حزن ٠ وكان توبياس يسعد بهذا ، فيجلس هادئا راضيا وهو يرنو في حنان ورقة على ظهر أوسو وهو يقول له

ـ ايها الزميل المسكين ، انك تنظر الى بحزن شديد ! نعم ٠ نعم ان الحياة حزينة ٠٠ سوف تكتشف لك هذه الحقيقة قبل ان تكبر كثيرا ولكن طبيعة أوسو كانت تتغلب عليه أحيانا ، فينقلب الى وحش ، مدفوعا بحاجته الى الانطلاق والجري وترويض طبيعته للصيد ٠٠ فكان يندفع عدوا هنا وهناك في الغرفة وهو يعبث بتحف سيده ويقفز على المقاعد او يستدير بجسده على الارض مرات ومرات ليصرف طاقته الزائدة ٠

وكان توبياس عندئذ يتابع نشاط اوسو وحركاته من بعيد ويراقبه ولكنه

غير راض عن هـــذه التصرفات . ولكنه لايستطيع ان يعمل شيئا غير انها تكسو وجهه ابتسامة صفراء كارهه ·· وأخيرا يدفع توبياس فجأة هاديا اوسو قائلا في هذا الكفاية الآن ·· توقف عن هذه الحركات المجنونة ·· ليس هنـــاك أي سبب لكل هذا النشاط والسعادة التي تبدو عليك ·

***

وحدث مرة أن تمكن أوسو من الخروج من الغرفة ، فاندفع يهبط الدرج حتى وصل الى الطريق ، حيث أخذ في الحال يطارد قطـا ، ويلتقط القـاذورات من الطريق ، ويقفز نحو الاطفال وهو يكاد يجن سعادة بهذه الانطلاقة · ولكن عندما ظهر توبياس بوجهه العـابس الذي كان يبطن بهول المصيبة التي حلت به ما ان ظهر توبياس حتى صح نصف الشارع بالضحك لمجرد رؤيته · وكان مؤلمـا يقفز مبتعدا في الناحية الاخرى كلمـــا ماحدث بعد ذلك ، فقـــد أطلق الكلب تقدم توبياس نحوه يريد ان يعيده الى غرفته ··

في ذلك اليوم استولى الغضب على توبياس، فراح يضرب الكلب مدة طويلة بعـد أن مرت عدة أسابيع على حصـول توبياس على الكلب ·· كان يـــوم حين تسـاول توبـاس رغيف خبز من احد الادراج،وبدأ يجني ليقطع الرغيف قطعا صغيرة بسكينة ذات المقبض العظمي · كان يلقي بقطع الخبز على الارض ليأكلها اوسو الذي اعتـرته الرغبة في الاكل وفي اللعب معـــا ··· فـراح يقفز الى اعلى ليلتقط قطع الخبز قبـــل أن تسقط على الارض ـــ ولكن السكين ذات المقبض الطويل التي تحملها يد توبياس المرتعشة أصابت اوسو في كتفه الايمن·· فسقط على الارض والدماء تنزف منه ·

وفي ذعر شديد ألقى توبياس بالطعام جانبا وانحنى على الحيـوان الجريح وقد تغيرت تعابير وجهه الذي كسته لمحة من الراحة والسعادة .. وفي عناية شديدة حمل توبياس الحيوان الجريح الى الاريكة·

وبكل ما يملكه من ذخيرة لا تنضب من الرعاية والاخلاص بدأ يعنى بالجريح لم يبرح جانب الكلب طيلة اليـوم ·· ولما حل الليـــل حمله ليبيت بجواره على سريره وغســـل له الجرح وضمده · وراح يربت عليه ويداعبه ويحدث عنه بعطف لا يعرف الملل ·· وراح يقول له

ـ هل يؤلمك الجرح كثيرا ؟ نعم ، انك تتألم كثيرا ايها الصديق المسكين .. ولكننا يجب أن نكون هادئين ويجب أن نحاول تحمله ·

وكانت نظرات وجهه تنطق بالسعادة الرقيقة الحزينة ·

ولكن مع تحسن صحة أوسو واندمال جرحه أخذت سعادة توبياس تنهـار من جديد ـ لم يعد يعنى بالجرح ـ واقتصر في التعبير عن مشـاعره على المداعبات والكلمات الطيبة ·· ولكن الجرح سرعان ما اندمل ، فقد كان تكوين أوسو قويا ، وبدأ يتحرك هنا وهناك مرة أخرى ·

* * *

وفي يوم من الايام بعد أن فرغ من تسـاول طبـق كامل من اللبن والخبز

الابيض بدا وقد استعاد حالته الطبيعية مرة اخرى ، فراح يقفز من الاريكة ليجري عبر الغرفة في كل اتجاه وهو يصيح في سعادة بما يستطيع به من نشاط وانطلاق .. شد اعطية السرير ، وطارد ثعبرة بطاطس في كل أرجاء الغرفة وأخذ يدور حول نفسه في ثورة عارمة .

ووقف توبياس عند اصيص الزرع في الشرفة ، وقد جرح ذراعاه الطريان النحيلتان من الكمين المهلهلين ، وراحت اصابعه تمسح ـ آليا بالشعر المتدلي عند صدغيه . وظهر جسمه أسود حالما على الحائط الرمادي للمبنى المجاور .

كان وجهه عابرا وقد تصبب منه الدماء بسبب الالم الذي يعتمل في نفسه وهو يرقب صامتا ثورة أوسو وألعابه وقفزاته هنا وهناك ، برمقه بنظرة جانبية فيها حقد وغيظ وغيرة .

وفجأة استجمع شتات نفسه واقترب من الكلب وأوقفه عن القفز واللعب ثم حمله برفق بين ذراعيه وبدأ يحدثه في لهجة رقيقة مليئة بالشفقة

ـ والآن أيها المخلوق التعس

ولكن أوسو لم يكن في حالة تجعله يحفل باحساس الشفقة والحنو ، فقد كان سعيدا مرحا مليئة بالحيوية، فافلت بسرعة من اليد التي همت لكي تربت عليه ، وقفز عاريا من ذراعي توبياس الى الارض حيث أخذ يدور حوله مداعبا .. ثم انطلق مبتعدا وهو يطلق نباحا سعيدا .

ما حدث بعد هذا كان شيئا مفاجئا مدهلا لا يمكن تصوره بدرجة أنني لا استطيع ان أروي تفاصيله . فقد انحنى توبياس الى الامام قليلا وهو واقف وقد مدت ذراعاه الى أسفل وشفتاه مرمومتان ، وهيئاه تتلوى بايقاع محجريها بشكل غريب .

وفجأة ـ في حركة سريعة مجنونة امسك توبياس بالكلب ، وقد برق في يده شيء كبير لامع وهو يهوي بسرعة ..

ثم القى أوسو الى الارض وقد مزق كتفه الايمن جرح كبير غائر في صدره . لم يصدر عن الكلب أي صوت . فقط وقع على جانبه فوق الارض تتدفق الدماء منه غزيرة وهو ينتفض .

ثم حمل توبياس الكلب فارقده على الاريكة لاحلس بجواره يضمد جراحه بينما يتمتم ـ

ياصديقي المتوحش المسكين ، ياكلبي المسكين ! كم هو حزين كل شيء ... كم هو حزين كل شيء بالنسبة لكليهما ! انك تتعذب . نعم انت تتعذب انا اعلم ذلك .. ها انت ذا ترقد في حالة رثى لها ولكنني معك ، أرعاك واخفف عنك .. هذا أقصر سبيل .

ولكن أوسو استلقى على الاريكة وخرجت من حنجرته حشرجة رتيبة .. واتجهت عيناه اللتان بدأت العيون تطمسهما ، اتجهتا نحو سيده في نظرة تساؤل . كلها شكوى وبراءة .. وعدم فهم . ثم تمددت ساقاه قليلا .. ومات .

***

ولكن توبياس ظل بجواره دون حراك وقد وضع وجهه على جسد أوسو وبكى بدموع مرة .